هلِ المرأةُ ضِلِعٌ أعوج ؟

بقلم : أدما حبيبي

آثرتِ الحديثَ بعد آخِرِ رشفةٍ من فنجان قهوتها، فقالت: "جئتُ إلى أميركا لزيارةِ شقيقتي ، وكان النصيبُ وتزوجتُ. وبصراحةٍ أقول، في البداية بهرتْني أضواءُ أمريكا ، ففضَّلتُ وأحببتُ البقاء فيها وعدم العودة إلى الأهل . لكن أنا الآن لا أراها إلا غابة مليئة بالوحوش والذئاب ، فالإنسان لا قيمةَ له دون أهله أبداً.

لقد تزوَّجته وأحببتُه. ظننتُه سيعوِّضني حرماني من أهلي. وسيكون بمثابة أهلي هنا. لكن للأسف تبيَّنت العكس تماماً. فقد استغل وحدتي هنا، وعدم وجود من يسندني أسوأ استغلال . لا يفتأ يضربني ويهينني وفي أحيان كثيرة دون سبب ، ويترك البيت مطمئنا بأنَّني لن أغادرَه فلا أحدَ لدي. ذهبت إلى شقيقتي التي تقيم في ولاية أخرى، عدة مرات، فوجدت بأن زوجها يتضايق لوجودي وأبنائي إضافة إلى أن زوجي لا يسأل ولا يكترث . وكل ما كنت أسمعه منه هو: كما تركتِ البيت عودي إليه. فكرت باللجوء إلى القانون. لكن، من يقف بجانبي ؟ من سيدعمني ؟ ولا دليل لدي وبماذا سأجيب أبنائي بعد أن أتسبَّب في حبس أبيهم؟

واليوم أعيش معه غير آمنة على نفسي. ولا أشعر بالاستقرار بعد أن استنفذت كل الوسائل كان آخرها زيارتي لأهلي إذ قررت عندها عدم العودة. لكنني اضُطررت مرغمة للعودة بعد أن هددني زوجي بتبليغ السلطات بأنني خطفت أبناءه. كما أنني وجدت نفسي غريبة بين أهلي ووجدتهم غرباء عني أيضاً. فالسنون التي باعدت بيننا ليست بالقليلة أبداً.

أعيش الآن دون راحة أو اطمئنان، دون استقرار. خائفة أن يحرمني زوجي أبنائي . فهو لا يتورع عن فعل أي شيء بعدما اختفت معالم الرجولة والنخوة والشهامة وانعدام الضمير في داخله. هذه هي مشكلتي فماذا أفعل؟"

إنها صرخةٌ تخرج من أعماق سيدة عربية مهاجرة لا تعاني من الغربة بعيدة عن أرض الوطن فحسب، بل من الغربة المرَّة حتى وهي في عقر دارها، في بيتها الزوجي وهي مع أولادِها. تعاني الأمرَّين من جرّاء تعرُّضها للضرب والإهانة من قبل زوجها الذي- كما قالتْ عنه- يستغل وجودها وحيدة وبعيدة عن أهلها ، فيتصرف كما يشاء ودون أيِّ رادع يردعه.

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service

هذه الصرخة لا تمثِّل حالة امرأة واحدة بل إنَّها تعبِّر عن حالة نساء عديدات إن لم نقل كثيرات يتعرَّضن للضرب والإهانة في بلاد المهجر كنَّ، أم في بلدهن الأم. صرخة تخرج من أعماق كيان المرأة المهانة والمعذبة تطلب من خلالها الخلاص والنجاة من وضعها المأساوي الذي يبدو أنه لا ولن ينتهي.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: ولماذا الضرب والتعذيب والإهانة لشريكة الحياة وحبيبة القلب ورفيقة الدرب ومنجبة الأطفال ومربيتهم؟ لماذا هذا الاعتداء ليس على الجسد فحسب، بل على الكيان بأكمله ؟ فالضرب لا يترك آثاره على الجسد فقط، بل إنَّما يمتد إلى أبعد من ذلك فتُجرح النفس والمشاعر وينكسر القلب ويتلوَّى ويكتئب من جراء تأثيره. لماذا الضرب والاعتداء ونحن نعيش في عصر التقدم والتطور؟ وهل خذلتنْا الكلماتُ يا ترى ؟ أم تعطَّلتْ لغةُ التخاطب؟ أتُرانا فشلنا في المناقشات وفي طرح قضايانا حتى لجأنا إلى الضرب والتعذيب والعنف؟ وهل الحل لمشاكل الحياة الزوجية يأتي عن هذا الطريق؟

أصدرت منظمة العفو الدولية قراراً جاء قبل اليوم العالمي للمرأة، الذي احتُفل به في الثامن من آذار الماضي، دعت فيه الحكومات إلى حماية مصالح المرأة بقوة أكبر. ويقول التقرير بأنه حان الوقت لأن تعترف الحكومات بأن العنف في المنزل وفي المجتمع ليس أمراً خاصا وإنَّما ينطوي على مسؤوليةٍ من جانب الدولة. وإذا أهملتِ الدول هذا الأمر فإنَّها تشترك في المسؤولية عن المعاناة التي تقاعست عن منعها. ويقول التقرير أيضاً بأن **عشرين بالمئة على الأقل من النساء في العالم يتعرَّضن للاعتداء عليهن جسدياً وجنسياً**. وقالت منظمة العفو الدولية بأن النساء يتعرَّضن في العالم للتعذيب والقتل فيما يُعرف بجرائم الشرف. **وفي الولايات المتحدة تتعرضُ امرأة للضرب كل ١٥ ثانية وتتعرض ٧٠٠ ألف امرأة للاغتصاب سنويا. ويتعرض أكثر من ٤٠ بالمئة من النساء المتزوجات في الهند للركل والاعتداءات الجنسية**. وتُرتكب هذا الجرائم لأسبابٍ منها عدم رضا الزوج عن أعمال الطهو والنظافة التي تقوم بها. **وفي مصر تشير التقارير إلى أن ٣٥ في المئة من النساء يتعرض للضرب بأيدي أزواجهن.**

ألا تحزُّ هذه الاحصائيات في نفوسنا الكثير؟ فالمسألة لا تقتصر على عذاب المرأة فقط، بل تشمل الأولاد أيضاً، الأجيال الجديدة التي ترى بأم عينيها ما يحصل مع أعزِّ إنسان وأقرب المقرَّبين إليها. وعليه فالقضية لا تتعلَّق بالعائلة فحسب، بل تمتد لتصبح قضية المجتمع والمجتمع محكوم بالحكومات ، أليس كذلك؟ فمنظمة العفو الدولية هنا إنَّما تضع المسؤولية على الحكومات في كل دولة يحصل فيها أي عنف ضد المرأة وتحثها على القيام بواجباتها. فهل تفعل الدول يا ترى؟

وماذا عن المجتمع والبيئة التي نشأنا فيها ؟ خذ مثلا ما يعتقده الكثيرون في مجتمعاتنا العربية خطأً، بأن "**المرأة مجرد ضلعٍ أعوج إن أقمتَها كسرتها، وإن استمتعْتَ بها استمتعْتَ بها وفيها عَوَج.**" أي إنَّها مأخوذة من ضلع أعوج في صدر آدم فإذا حاولت

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربيه ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service

تصحيح اعوجاجه كُسر. لكن هل هذا ما تعلّمنا إيّاه كلمة الله المقدسة التي دوّنها أناس الله القديسون مسوقين بالروح القدس؟ هل حقاً إن المرأة ضلع أعوج؟ يخبرنا الكتاب المقدس بأن" **الرب الإله أوقع سباتا على آدم فنام. فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما. وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم. فقال آدم: هذه عظم من عظمي ولحم من لحمي هذه تدعى امرأة لأنها من امرء أخذت.**" لهذا فهي منه وله خلقت. من جسده بناها الله فهي جسد واحد معه.

وهنا في قصة الخلق لم نقرأ قط بأن الضلع الذي أُخذ من آدم كان أعوجا ! أخذ الله الضلع وقام ببناءه وجعله امرأة. والبناء بالطبع جاء كاملاً فأحضره إلى آدم. ثم في مكان آخر يخبرنا الكتاب المقدس بأن الله عمل الإنسان بشقيه أي آدم وحواء على صورته ومثاله. "**فخلق الله الإنسان على صورة الله خلقه ذكرا وأنثى خلقهم.**" فإذا كان الاثنان مخلوقين على صورة الله كشَبَهه فكيف تكون المرأة ضلعاً أعوجا ؟ وهل يُعقل أن يكون شيء أعوجا على صورة الله تعالى وشَبهه؟ فالله سبحانه وتعالى كليُّ الكمال ولا يخلق إلا مخلوقات كاملة ليس فيها نقص أو عوج. أما الانحراف والعوج الذي في الإنسان اليوم فهو نتيجة لسقوطه في الخطية خطية العصيان على الله خالقه. وهو يشمل البشرية بأسرها، وليس الأنثى فقط. بل الجميع.

وعندما يقوم الرجل بتوجيه اللّكم والركْلِ إلى زوجته التي هي واحد معه ، فهو إنّما يقوم بإهانة نفسه وتعذيب جسده. ألم يقل :" يصير الاثنان جسدا واحدا؟" فكيف يضرب الزوج هذا الشريك الذي أصبح جزءا منه ونصفا آخر له؟ وتعلِّمنا كلمة الله المقدسة وتقول ناصحة الأزواج ما يلي:" **أيها الرجال أحبُّوا نساءكم كما أحب المسيح أيضا الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها... كذلك يجب على الرجال أن يحبوا نساءهم كأجسادهم. من يحب امرأته يحب نفسه. فإنه لم يبغض أحد جسده قط بل يقوته ويربيه...**"

ترى، ماذا ترانا نفعل إزاء هذه الكلمات النورانية؟ هل تنير بصيرتنا وتكشف الغشاء عن أعيننا فنرى بوضوح ماذا تعني المحبة الحقيقية للزوجة؟ فالمحبة الحقة هي أولاً الاستعداد للتضحية بكل شيء من أجل المحبوب. وتعني ثانياً وضع سعادة شريكة الحياة في الدرجة الأولى. وثالثاً الاعتناء بها كما يعتني بجسده. فهل يُعقل إذن أن يستهتر الزوج بجسده ، أعضائه ، ويهينه ويذلّه؟

يا حبّذا لو أننّا جميعا نعود إلى كلمة الله المقدسة التي تنير دربنا المظلم وتنير خبايا قلوبنا المعتمة، فنعرف خطأنا ونعترف بخطايانا. وبالتالي نسلك على ضوء الكلمة المنير الذي وحده يغيِّر. فنتعامل مع الحبيبة ورفيقة الدرب بالرفق والمحبة والغفران واللطف والتقدير والاحترام. تماماً كما تعامل المسيح مع الكنيسة فأسلمَ نفسه لأجلها لكي تكون بلا عيب ولا غضْن. **فليست بعدُ شريكة الحياة "لعبةً" بين أيدينا نفعل بها ما نشاء، وليست هي "ضلعاً أعوجا" نحاول إصلاح اعوجاجه.** بل إنما هي الأم الرؤوم منشئة الأجيال ومربية الشعوب ينبغي الحفاظ عليها **بالفطنة والدراية والمحبة.** فهل ندرك مركزها ونقرُّ ونعترف به؟ ونتبع بذلك خطى الرب يسوع المسيح في المحبة الباذلة والمضحية؟

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربيـة ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service